سوريا: «مرجعيات» أخرى للنقاش

لا ينفع ان تدين جرائم السلطة وانت تتغاضى عن جرائم جيش الإسلام او جيش الفتح (الاناضول)

ورد كاسوحة *

النقاش حول أعمال القتل والانتهاكات في سوريا أصبح بلا ضوابط، فالاتهامات حين تُكال لهذا الطرف أو ذاك لا تكون بناءً على معطيات لها علاقة بالواقع وإنما وفقاً للانتماء السياسي للجهة التي تتهم أو تُدين. فإذا كانت هذه الجهة معارضة يصبح النظام وحده هو المسؤول عن كلّ الجرائم التي تحصل في سوريا، من عمليات القصف إلى الحصار والتجويع مروراً بالنهب والسرقات، أما إذا كانت الجهة موالية فتغدو العملية عكسية بالكامل وهكذا دواليك إلى أن نصل إلى نتيجة تغدو فيها الإدانة انعكاساً لحالة ذهنية أكثر منها واقعية. في كلّ واقعة تحصل في البلد أو في المنافي التي تحتضن السوريين تتكرّر هذه العملية وتكرّر معها أنماطاً من الأداء لم تعد تعبّر في الواقع عن أيّ حساسية تجاه الوضع الراهن. إذ يفترض بأن تكون أنماط التعبير عن الواقع مطابقة لدرجة تطوّره وتعقيده، وهذا الأمر ينسحب على كلّ إفرازات الأزمة بما في ذلك الموقف من الأنظمة المتعدّدة والمتفرّعة التي باتت تحكمنا. والحال أن ذلك لا يظهر في أيّ من السرديات التي تتعامل مع الواقع حالياً، حيث تسود رواية أو روايتان فقط لما يحدث، في حين أنّ المطلوب هو إبراز الطابع المتناقض للواقع والذي يستحيل اختزاله في سرديتي النظام والمعارضة أو النظام وداعش.

الموقف من اغتيال زهران علوش

ليست «الالتباسات» هنا تعبيراً عن واقع بقدر ما هي تعبير عن مواقف تحتكر تفسيره وتؤوّله وفقاً لما تعتقد أنه «الحقيقة المطلقة»، وقد ظهر هذا الأمر جلياً في المواقف المتضاربة من اغتيال زهران علوش. فقد تمّ التعامل مع عملية الاغتيال انطلاقاً من الارتباطات التي يمثّلها كلّ طرف، وهذا يعني أن الموقف سيكون جزئياً بالضرورة ولن يقدم لمن يريد «الصورة الكاملة» عما حدث. النقاش لم يتطرّق أصلاً إلى الحيثية التي يمثّلها الرجل وظلّ يراوح عند حدود التشفّي أو التعاطف، وحتى عندما قُدّم موقف عقلاني يدين علوش والسلطة معاً بقيت الأمور بالنسبة إلى الناس معلّقة وملتبسة، لأن من قدّم هذا الموقف لم يجرؤ على توضيح الأمور كما هي، وبقيت إدانته في حدود اللياقة السياسية التي يفترضها الانتماء إلى «الثورة». فعند هؤلاء لا تزال «الثورة» هي المرجعية التي يجرى الاحتكام إليها لتفسير الواقع وأخذ مواقف من تطوّراته، وعندما يتم فعل ذلك في موضوع زهران نكون أمام ليس فقط تجاهل لما يقع خارج المرجعية وإنما أيضاً إنكار لكلّ المرجعيات الأخرى التي يحتكم إليها سوريون آخرون لا يعتبرون «الثورة» مرجعيتهم. في أفضل الأحوال يعبّر هذا الأمر عن احتكار للتأويل ويفضي إلى نتائج ليست معبّرة تماماً عن الواقع، أما في أسوئها فيُعَدّ افتئاتاً على آخرين لا يعنيهم أن يكون زهران علوش ضحيةً أم لا، وهؤلاء هم على الأغلب المعنيون أكثر من سواهم بنقاش الحيثية الفعلية التي يعبر عنها الرجل والتي جرى تجاهلها تماماً في التأويلات الخاصّة بالحدث، سواء تلك المعارضة منها أو الموالية.

في الموقف من سلطة زهران

الشريحة الأخيرة تعتبر نفسها غير معنية بالوقوف إلى جانب السلطة أو المعارضة في موقفهما من زهران علّوش، فهي وإن كانت موالية ظاهرياً إلا أن موالاتها ليست هي المعيار الحقيقي في الحكم على الرجل، بدليل أنها تلوم السلطة على تقاعسها في قضية معتقلي عدرا العمالية، وهي القضية التي لا يجرؤ أحد على تناولها حينما يتمّ التطرق إلى موضوع زهران. بالنسبة إلى مثقفي المعارضة لا تعني هذه القضية شيئاً ولا تدخل أصلاً في الحساب الجاري بينهم وبين الرجل، فعلاقتهم بعلوش لا تحكمها إلا مرجعية «الثورة»، وهذه الأخيرة تقتصّ فقط لضحاياها بينما الضحايا الآخرون لا يقعون في محور اهتمامها، ولذلك تتناساهم أو تترك أمرهم لنخبة المولاة. هكذا، يصبح الموقف المعارض من زهران محكوماً فقط بتنكّره «للثورة» واعتقاله لناشطيها، ولا يعود أمر سلطته التي تقصف المدن كما يفعل النظام وتعتقل الناس وتحبسهم في أقفاص مهماً. لطالما كان موقفهم منه هكذا، ولم يعمدوا أبداً إلى تطويره رغم كلّ التغيرات التي طرأت على الوقع في الغوطة الشرقية. بالنسبة إليهم لم تكن المشكلة أبداً في طبيعة هذه السلطة وفي بنيتها القمعية التي تتماثل إلى حدود معيّنة مع بنية النظام بقدر ما كانت في توجّهها إلى إنهاء النشاط المعارض داخل الغوطة وحصره بالقنوات التي يعبر عنها جيش الإسلام وباقي الفصائل المتحالفة معه. وهو ما انعكس على مجمل مقاربتهم للقضايا الحقوقية الخاصّة بسلطة زهران، فعندما لا يكون هنالك أساس مشترك للعمل بينهم وبين معظم ضحايا هذه السلطة يصبح من الطبيعي أن يُتعامَل مع قضيتهم قبل اختطاف رزان والمجموعة أو بعده «كقضيةٍ جزئية» وألا يجرى اعتبارها شأناً عاماً يخصّ كل المتضررين من سلطة علّوش. والمشكلة الأكبر أنّ النخب المعارضة

هكذا إذاً: سمير قاتل أطفال!

صادق النابلسي *

لم تمضِ ساعات على اغتيال عميد الأسرى المقاوم سمير القنطار حتى انهالت التعليقات، على وسائل التواصل الاجتماعي، والتي عكس بعضها وجود خراب ذهني أكثر عمقاً مما كنّا نظن. نبّهنا البعض في كلماته إلى أننا كلبنانيين لا نواجه أزمة هويات شقيّة وممزقة فحسب، بل أزمة في التعبير عن المشاعر وتحريك الأفكار التي تدور في خُلدنا، وكأنّه تتعذر علينا إقامة علاقات متوازنة بين القناعات الخفية والقيم الجوهرية الثابتة في الأديان والمستقرة لدى الشعوب. فأن يتحول الافتراق في السياسة إلى تغوّل وتطرّف وهذيان واستنتاجات أخلاقية ساذجة فهذا يعني أننا نفتقر إلى فن العيش، وهذا يعني أنّ المرض لم يفتك في سلامة بصيرتنا حيال السلطة والسياسات والخيارات فقط، بل أمسك بالحواس فشلّها وانسلّ إلى الخيال فشوّهه والنزعات فشيطنها، حتى بات أحدنا يسوّغ القتل أو القمع أو السبي أو الإبادة الجماعية... لا نسبياً بل بنحو مطلق وفي إطار المواجهة مع «الآخر». هكذا تخرج الكلمات من صميمها إلى الفضاء الافتراضي انفعالات تائهة ثم تتحول إلى تصرفات شائنة تخلو من البطولة والشرف والمجد. وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على أنّنا نعيش في الوهم من أنّ الحاضر واضح والوقائع جلية أما الأخطاء فهي التي حصلت في الماضي حصراً، ويدلّ أيضاً على مشكلة كبيرة في الأخلاق، فهذا الذي يعيش ضمن جدران مجموعة من القيم الالتقاطية المهجّنة غب الطلب، والأهواء الشخصية، يتخطى الأسس والتقاليد الروحية الراسخة في تنظيم العلاقات بين البشر، مستهدفاً تمزيق كل صلة تربطه بالآخر، وكأنّ العيش لا يستقيم إلا عبر التخلّص من صيغة «الآخر» وعبر رؤية الأمور منفصلة والمسارات متباعدة.

فما جرى على ألسنة البعض بحق القنطار فجٌ شديد الإسفاف، يقفز خارج سياق النقد حتى لو كان لاذعاً، ويتجاوز حدود الحرمة حتى لو كان الميت عدواً. إذ يمكننا بسهولة ومن خلال متابعة التعليقات التي صدرت بُعيد إعلان اغتيال القنطار أن نعرف أنّ بيننا كلبنانيين فراغات هائلة تحجبنا عن إدراك الحكمة في اتخاذ المواقف والتعبير عن المشاعر والأفكار إزاء المشاكل والوقائع التي تواجهنا. في حالات معينة يسيطر على البعض الجهل التام في مقاربة قضية من القضايا، وفي حالات أخرى لا يُرى من الحقائق إلا أجزاء محدودة منها، وفي الأعم الأغلب فإنّ طير العقلانية يبقى مستتراً إلا على من انخرط في نسق معرفي وقيمي يسمح بربط الأمور وتحليلها للوصول إلى نتائج واقعية ومعنوية. هنا لا بد من التساؤل بقوة حول الثقافة التي تصنع عالمنا الصغير وعلاقاتنا الاجتماعية. يجب أن نعرف في أي أجواء نعيش؟ وماذا نتعلم؟ ولماذا لدينا هذا العدد الهائل من اللغات الخاصة؟ لماذا نحن منغمسون في عصبيات لا يسعها سوى تعزيز الرؤى الآحادية المشوّهة البسيطة التي هي إحدى الحيل البارعة للنفس لتبرير ما يصدر عنها.

وأنا لن أحشد في هذه المقالة كل ما قيل وهذا غير ممكن، ولكن سآخذ كلمات بعض النخبة التي تمثل وجدانياً وفكرياً كل التعليقات الكريهة التي سيقت ضد القنطار ومن يتحالف معهم وبالأخص حزب الله. فمثلاً هشام ملحم يكتب: «سمير القنطار قاتل أطفال بالنسبة لي». فما الذي يجعل مثقفاً كهشام ملحم سجين «طوطم» المعايير الأميركية والإسرائيلية والسعودية؟ ما الذي يجعله يعدم وعيه التاريخي إلى هذا الحد ويقطع بأنّ ما يفعله سمير في سوريا هو ممارسة مهنة قتل الأطفال تحديداً؟ هل ما قاله هشام حقيقة علمية ثابتة أم خيال زائف استدعاه تحت وطأة إحساس حاد نزق وحقد مكتوم؟ أمّا مي شدياق التي تعيش تمزّقات نفسية مستدامة وأمراض عصبية قديمة، فيمكن القول إنها لا تنتمي إلى فصيلة الفكر وإنما إلى شكلانية خالصة. تمضي من زعيق إلى آخر لأنها لم تستطع أن تتخطى في احتجاجها على حزب الله حدود الضغينة والشحناء المستقرة داخلها. تقول: «حزب الله يُقحم لبنان في 2006 في حرب مع إسرائيل ليصبح سمير القنطار أسيراً محرراً، ثم يقحم نفسه في حرب سوريا في 2015 فيصبح مناضلاً شهيداً». هكذا بكل بساطة تضع الشدياق الإطار التاريخي للصراع بين حزب الله والكيان الإسرائيلي، وخلفيات تدخل الحزب في سوريا ضمن معادلة بالغة السخف. أمّا علي الشيخ عمار القيادي في الجماعة الإسلامية ورئيس المنظمة اللبنانية للعدالة فينشر على صفحته التعليق التالي: «نرجو أنّ سمير القنطار الذي شارك في تدمير سوريا وذبح أطفالها وإحراق مساجدها... نرجو أنّ هذا المجرم قد قُتل على أيدي المسلمين المؤمنين المجاهدين المرابطين الصابرين المصابرين». وعمار الذي يكتظ صدره بالضغينة على حزب الله وإيران وسوريا هو حليف سابق لهم. قرر بعد «الربيع العربي الأشم» إخفاء ملامحه القديمة وتغليب النزعة الإنسانوية لديه على أطفال سوريا الذين يذبحهم «المجرم سمير القنطار». فهل ما يقوله الأستاذ الجامعي هو من قبيل ما يجري على مسرح اللامعقول، أو من نوع التضليل الواعي، أو من طبيعة النشاط المتعالي الذي يتم في أفق من التجريد المحض بسبب فراغ داخلي أو إحباط إيديولوجي، أو بفعل مشكلة مبهمة تجعل النفس مرتعاً للخرائب والتفسّخ والأمال الضائعة. ما يقوله الرجل يحتاج حقاً إلى تفسير يربط بين أبعاد اضطراباته التي أوصلته إلى سلسلة من التخرصات والشعارات القشرية. فهو مصرّ منذ ترأسه منظمة العدالة هذه على ممارسة أسوأ أنواع التضليل عبر المنطلق المذهبي ولكن بشكل بائس وسطحي. ومع قراءته هذه السطور أتخيله يقول شيئاً

> إنّنا أمام نخبة جرفتها دوافع الاختلاف إلى العمى الأخلاقي

الأخبار
al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار ابي صعب
■ مديرا التحرير: إيلي شلهوب، وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: محمد زبيب، حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأندري، شربل كريّم
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
■ تلفاكس: 01759500 / 01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات: الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
■ التوزيع: شركة الأوائل 15ـ01 /666314 ـ 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper